الشيخ زكريا الأنصارى(*)

٨٢٥ أو ٨٢٦ - ٩٢٦ هـ

١٤٢٠ أو ١٤٢٣ - ١٥٢٠ م

هو الإمام العلامة الشيخ زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصارى السنكى المصرى الشافعى، أبو يحيى، شيخ الإسلام. كان مفسراً من المفسرين، وحافظًا من الحفاظ، غزير العلم، قوى الأركان والدعائم فى العلم، ملحوظ المكانة والمنزلة.

ولد - رحمه الله - فى سنيكه (إحدى أعمال مديرية الشرقية بمصر المحروسة) سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة (على ما ذكر الزركلى فى الأعلام ٣/ ٤٦ وقد وافقه على ذلك صاحب الكواكب السائرة ١/ ١٩٦) أو سنة ستة وعشرين (معجم المؤلفين ٤/ ١٨٢) وقيل: بل ولد سنة أربع وثلاثين، وذكر ابن العماد أنه ولد سنة ثمان وعشرين وثمانمائة وتوفى سنة خمس وعشرين وتسعمائة للهجرة (شذرات الذهب ٨/ ١٣٤) بيد أن صاحب نظم العقيان يذكر لنا أنه ولد سنة أربع وعشرين وثمانمائة(١١٣).

بعد أن حفظ القرآن الكريم فى صباه تحول إلى القاهرة سنة احدى وأربعين، واختلف إلى الأزهر الشريف، وظل ينهل من ورده السخى، ومعينه الذى لا ينضب، فحفظ الألفية والمنهاج والشاطبية، وغيرها من مهمات المتون فى التفسير ومصطلح الحديث واللغة والمعانى، والبيان، والبديع، والمنطق، والفرائض والعروض والقوافى، والنحو والصرف، والحساب والجبر، ولم يؤثر علمًا على علمٍ فإن العلوم كلها كانت أثيرة عنده وليس بعضها بأولى من بعض.

---

* راجع ترجمة الشيخ زكريا الأنصارى فى المصادر والمراجع الآتية:
شذرات الذهب لابن العماد ٨/ ١٣٤ - ١٣٦ ، والبدر الطالع للشوكانى ٢/ ٢٥٢، ٢٥٣ ، وحاجى خليفة فى كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون فى مواضع عديدة متفرقة، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٤/ ١٨٢، ١٨٣ والأعلام للزركلى ٣/ ٤٦، ٤٧ ، ومعجم المطبوعات ليوسف اليان سركيس ١/ ٤٨٣- ٤٨٨، والكواكب السائرة ١/ ١٩٦ والنور السافر ١٢٠ .

كان الشيخ زكريا الأنصارى معاصرًا للإمام السيوطى ـ رحمه الله ـ العلامة الموسوعى المعروف، فقد مات السيوطى سنة احدى عشرة وتسعمائة، أى قبل وفاة زكريا بأربع عشرة سنة فقط.

وقد عاصر لفيفًا من أعلام عصرة أمثال الحافظ ابن حجر والعلامة أستاذ الوجود (كما أسماه السيوطى) الشيخ الكافيجى، والقاضى بدر الدين بن جماعة، والشيخ سراج الدين البلقينى، والشرف المناوى، والإمام الحصنى وغيرهم وغيرهم.

اشتهر الشيخ زكريا الأنصارى بسعة الأفق، وطول الباع فى علوم الشريعة، كذلك اشتهر برقة الحال إذ نشأ فقيرًا معدمًا، لم يكن لديه ما يتزجى به.

ومما ذكرته عنه كتب التاريخ أنه كان يجلس فى الأزهر ينهل من العلوم والمعارف، ثم ينتظر حتى يجن الليل وتخلو الشوارع من السابلة، فيخرج تحت جنح الظلام، ليجمع قشر البطيخ ليأكله.

ولى الإمام قضاء الشافعية فى دولة السلطان الأشرف قايتباى بعد تردد من جانبه، ومحاولات استرضاء من السلطان قايتباى، ووافق أخيرًا، فلما رأى أشياء لا ترضيه، انتقدها واعترض عليها عزله السلطان. وكان أمضى فى القضاء زهاء عشرين سنة، ثم كف بصره، وكان ذلك قبل وفاته بمدة طويلة، ومات وهو معزول عن القضاء.

يذكر صاحب «معجم المطبوعات» أنه ولى فى آخر عمره مشيخة مدرسة الجمالية، ودرس فى القاهرة نحو ثمانين سنة، وقد توفى رحمه الله فى يوم الجمعة لأربع خلون من ذى الحجة. وقد تأثر الناس بموته، وحزنوا عليه حزنًا شديدًا.

رحم الله زكريا الأنصارى وجعله من المقبولين المرحومين آمين.

من مكتبة الشيخ زكريا الأنصارى

١ ـ أسنى الطالب فى شرح روض الطالب. وهو شرح على روض الطالب لابن المقرى. وهو كتاب نفيس فى الفقه، وبهامشه حاشية الشيخ أحمد الرملى الكبير (فقه شافعى) ونشر جزؤه الرابع بمصر سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة وألف للهجرة.

٢ ـ تحفة البارى على صحيح البخارى، وهو مطبوع من كتاب «إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى للقسطلانى» سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وألف.

٣ ـ حاشية على التلويح ـ فى علم الأصول ـ .

٤ ـ الدقائق المحكمة فى شرح المقدمة الجزرية فى التجويد، مطبوع فى المطبعة الميمنية سنة ثمان وثلاثمائة وألف، وبهامشه المنح الفكرية بشرح المقدمة الجزرية لملاّ على القارى.

٥ ـ شرح الشافية لابن الحاجب.

٦ ـ غاية الوصول شرح لب الأصول.

٧ ـ تحرير تنقيح اللباب.

٨ ـ شرح ايساغوچى، المعروف بالمطلع فى علم المنطق، مطبوع ببولاق، سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف للهجرة، فى مجموعة رقم ثلاثة وتسعين.

٩ ـ فتح الرحمن على متن لقطة العجلان للزركشى (فى علم الأصول) وبالهامش حاشية الشيخ يس على الشرح المذكور. مطبوع بمطبعة النيل سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة وألف.

١٠ ـ الغرر البهية فى شرح البهجة الوردية ـ وهو الشرح الكبير. وقد فرغ من تأليفها سنة سبع وستين وثمانمائة.

١١ ـ فتح رب البرية بشرح القصيدة الخزرجية فى علم العروض، طبع بهامش «العيون الفاخرة الغامرة على خبايا الرامزة لابن أبى بكر الدماميني، بمصر سنة ثلاث وثلاثمائة وألف.

١٢ ـ لب الأصول. وهو مختصر من جمع الجوامع لابن السبكى.

١٣ ـ الملخص من تلخيص المفتاح، فى البلاغة. بولاق سنة خمس وثلاثمائة وألف.

١٤ ـ منهج الطلاب، فى فقه الإمام الشافعى. وهو يعتبر مختصراً من منهاج الطالبين للنووى ـ طبعة بولاق سنة خمس وثمانين ومائتين وألف وسنة أربع وتسعين ومائتين وألف، وطبع حجر بمصر سنة سبع وثمانين ومائتين وألف بمطبعة الجمالية.

١٥ ـ فتح الرحمن بشرح رسالة الولى رسلان، وهو شرح الرسالة الرسلانية فى علم التوحيد، طبع سنة سبع عشرة وثلاثمائة وألف.

١٦ ـ فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن ـ وهو كتابنا هذا. وسبق طبعه بحاشية السراج المنير فى الإعانة على معرفة بعض كلام ربنا الحكيم الخبير (طبعة بولاق سنة تسع وتسعين ومائتين وألف).

بين يدى هذا الكتاب

هذا الكتاب النفيس القيم الرائع فى مادته وتناوله قد جمع فى أطوائه وبين ثناياه عديدًا من المسائل الدقيقة، واللطائف البارعة التى تثبت بيقين عظمة القرآن الكريم، وأنه تنزيل من رب العالمين، لا يأتيه ولا يمكن أن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولئن كان كتاب الإمام زكريا الأنصارى هذا الذى نقدمه مسبوقًا ببضعة كتب فى موضوعه، إلا أنه أفاد من هذه الكتاب جميعاً بنقول واضحة صريحة لكن مع عدم الإشارة إلى أى منها.

ولكونه جامعًا لها آخذًا بأحسن كل منها فقد أربى عليها جميعًا لتوسعه فى المادة، مع غزارة الشرح الذى يتناسب مع ما توفر عليه من مصادر لم تتوفر لأسلافه من أولئك المصنفين.

وكما كان للأسلاف فضل السبق، فقد كان للشيخ زكريا الأنصارى فضل التوسع والإضافة والمزيد من التمكين.

ولعل أهم الكتب التى عول عليها الإمام الأنصارى فى تصنيف هذا الكتاب: «درة التنزيل للرازى» وكتاب: «درة التنزيل وغرة التأويل للاسكافى»، ثم كتاب: «البرهان فى توجيه متشابه القرآن لتاج القراء الكرمانى».

ولعل أكثر هذه الكتب اعتمادًا عليها فى تزويد هذا السفر الممتع هو كتاب «البرهان للكرمانى» وقد حققه السيد الجميلى، ونشر فى مركز الكتاب للنشر بالقاهرة.

فقد نقل الإمام الأنصارى ما ينيف على ثلاثة أرباع مسائل الكرمانى بأعيانها وضمنها كتابه بنفس السياق والأسلوب من غير إشارة أو ذكر لسبق الكرمانى فى ذلك ـ وهكذا كانت عادتهم قديمًا ـ لكن مما هو جدير بالذكر، أن الأنصارى توسع فى الكثير منها وأضاف إليها إضافات كثيرة من وحى خاطره ومن فيض الهامه، وجليل فيوضاته، وهى نافعة كثيرة الفائدة على العلم وأهله لانطوائها على جليل الفضل والفضيلة، فله كل التقدير والامتنان كفاء ما أسدى وسوغ ونفخ.

* * *

تناول الكتاب «متشابه القرآن» إذ عمد إلى ذكر الآيات المتشابهات وذكر الفروق بين كل منها، وأفاض وأجاد فى بيان وتبيين علل الاختلاف أو التشابه بالأدلة القوية الرصينة.

إن أكثر إن لم يكن جميع العلل والإشارات الواردة محل وموضع الاحتجاج فى تفسير الحكمة فى التشابه إما لغوية نحوية أو صرفية، وإما بلاغية أو تفسيرية... الخ.

لذلك فإننا لا نعدو القول والحق إذا ما قررنا أن هذه المادة العلمية المسوقة والمقدمة فى هذا الكتاب تعتبر روضة فيحاء، قد جمعت الكثير من أصناف وأخياف العلوم النافعة، وهى رصيد كبير ذو أثر محمود فى إشاعة الخير الذى حرص عليه المولف ـ رحمه الله ـ ورضى عنه وأرضاه ـ ونحرص عليه بدورنا نظرًا لقيمته العلمية ومكانته الرفيعة بين نظرائه وأضرابه.

* * *

مخطوطات الكتاب وأصوله

حصلنا على نسخة كاملة للكتاب، وهى مصورة من أصل المخطوطة الإسبانية، والتى رمزنا إليها بالحرف (ص) وهى مودعة بمكتبة أم القرى.

وفى واجهة النسخة ورد الآتى:

كتاب فتح الرحمن بكشف (ما لبس) فى القرآن وقد اعتمدناها كأصل لتحقيق الكتاب لأنها أكمل وأدق نسخة وقعت تحت أيدينا. وهى تقع فى مائة وثمان وخمسين ورقة من القطع الكبير.

وعلى واجهتها رقم كودى ١٣٨٥ وعليها خمسة أسطر باللغة الفرنسية.

تحتوى الصفحة على سبعة عشر سطرًا، والسطر على ثلاث عشرة كلمة فى المتوسط، وخطها واضح وذكر الناسخ أنها منسوخة يوم الاثنين المبارك الموافق الثامن والعشرين من شهر ذى القعدة سنة خمس وألف. والحمد لله وحده.

توجد نسخة أخرى بمكتبة جامعة أم القرى بمكة المكرمة (ج) وفيها وعلى صفحتها الأولى ورد تحريف فى العنوان «(فتح الرحمن بكشف) (ما تلبس) فى القرآن».

وتحتوى الصفحة على سبعة عشر سطرًا، ويحتوى السطر على احدى عشرة كلمة إلى اثنتى عشرة كلمة.

نسخة أخرى مودعة بالحرم المكى الشريف (ح) وورد بها أيضًا تحريف آخر فى العنوان إذ ورد كالآتى:

فتح الرحمن بكشف (ما يلبس) فى القرآن.

وعليها تمليكات وتحتوى الصفحة على واحد وعشرين سطرًا فى المتوسط، ويحتوى السطر على اثنتى عشرة كلمة فى المتوسط أيضًا، وخطها واضح.

وقد عمد العلامة الأستاذ الشيخ محمد على الصابونى صاحب (صفوة التفاسير) إلى تحقيق هذا الكتاب سلفا على هذه المخطوطات الثلاث فى مطبوعة لم تقع فى أيدينا إلا بعد أن أشرفنا على إتمام تحقيق الكتاب، وهذه من المفارقات الجميلة فأفدنا منها إفادة مرموز إليها بالحرف (ط).

ومن المصادفات العجيبة أيضًا أن أخبرنا الصديق الكريم الأستاذ الدكتور عبدالقادر حسين رئيس قسم الأدب والنقد بكلية الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر ـ لما علم بتحقيقنا لهذا الكتاب ـ أنه حققه منذ نحو سبع سنوات لكن حتى الآن لم ينشر بعد.

وقد عمدنا بعد نسخ الكتاب من المصورة الأسبانية إلى ضبطه وترقيم مسائله ترقيمًا ينتظم الكتاب كله.

ثم خرجنا الآيات من المصحف الشريف وعولنا على ضبط أصوله على كتابين أساسيين: هما البرهان فى توجيه متشابه القرآن للكرمانى مشيرين إلى كل مسألة بنظيرتها فى البرهان، وكذلك كتاب فتاوى الإمام النووى.

ثم استقصينا مصادر ومراجع التفسير الشهير المعتمدة فى تفسير كثير من الآيات مثل القرطبى، والطبرى، والبحر المحيط لأبى حيان، والتفسير الكبير للفخر الرازى، وزاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، والجلالين، والدر المنثور فى التفسير بالماثور للسيوطى وغيره وغيره.

هذا والخير أردنا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، والحمد لله رب العالمين.

المحققان